زاد الأئمة والخطباء رقم (٨٠)

الدليل الإرشادي لخطبة الجمعة

فقه صنائع المعروف

٣ جمادى الآخرة ١٤٤٨ هـ – ١٣ نوفمبر ٢٠٢٦م

الهدف المراد توصيله: بيان أثر صنائع المعروف في تعزيز التكافل والتماسك المجتمعي، وقدرته في مواجهة الأزمات.

لمتابعة المزيد من خطبة الجمعة: https://awkafonline.gov.eg/friday-sermon

لمتابعة المنصة الرسمية لوزارة الأوقاف: https://awkafonline.gov.eg/

فقه صنائع المعروف

الحمد لله، والصلاة والسلام على سيدنا رسول الله، وآله وصحبه ومَن والاه واتبَعَ هُداه، أما بعد:

فإن الأمم إنما تنهض بما يَسُودها من قِيَم أخلاقية وروابط إنسانية، وفي مقدمتها **فقه صنائع المعروف**؛ فهو سِياجٌ يحفظ تماسُك المجتمع، ويُعِينه على مواجهة الأزمات، فالمعروف في الإسلام عبادة ومسئولية، تتجلَّى في إغاثة الملهوف، وإنقاذ المكروب، وإيواء المحتاج، ومواساة المُصاب، وكل عمل يُحقِّق نفعًا للناس، ويدفع عنهم الضرر.

ومن هنا كان **فقه المعروف** أعمق من مجرد الدعوة إلى الإحسان؛ إذ يُربِّي المسلمَ على إدراك حاجات الآخرين، والمبادرة إلى قضاء حوائجهم، وابتغاء مرضاة الله دون مَنٍّ أو انتظارِ مقابل.

وتظهر حقيقةُ هذه القيم في أوقات الشدة؛ فبينما يكشف الرخاءُ عن سعة الأيدي، تكشف المِحَنُ عن سعة القلوب ونُبل المواقف، وقد تجلَّى ذلك في سعي أهالي العياط لمساندة فِرَق الإنقاذ عقب **حادث القطار** يوم ٨ نوفمبر ٢٠٢٦؛ إذ سارعوا إلى إضاءة موقع الحادث، وساعَدوا في حَمْل المرضى، ورفع الضرر، وفتحوا منازلهم لاستقبال المتضرِّرين، وقدَّموا لهم الطعام والمياه، في صورة مُشرِقة من صور النجدة والتكافل.

إنها رسالة تؤكد أن المجتمع المسلم لا يكتفي بالتعاطف مع آلام أبنائه، بل يُحوِّل مشاعر الرحمة إلى عمل، ويجعل من التعاون مسئوليةً مشتركة، يحمل كلُّ فرد نصيبه منها؛ لتظل صنائعُ المعروف عنوانًا لأخلاقه، وركيزةً لتماسُكه، وسبيلًا إلى مَعِيَّة الله وعونه.

صنائع المعروف.. عبادة يتعدَّى نفعُها إلى الخَلْق

جعل الإسلامُ الإحسانَ إلى الناس، والسعيَ في مصالحهم، وكشف كُرباتهم، من أجَلِّ القُرُبات وأعظم أبواب البر؛ فلم يجعل الخير محصورًا في شعائر يتعبَّد بها الإنسان في خلوته، وإنما جعل من تمام عبوديته أن يكون نافعًا لغيره، قائمًا بحقوق إخوانه، مستشعرًا أن العبادة الحَقَّة لا تنفصل عن عمارة الحياة، وإصلاح أحوال الناس.

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱرۡكَعُواْ وَٱسۡجُدُواْ وَٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمۡ وَٱفۡعَلُواْ ٱلۡخَيۡرَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ﴾ [الحج: ٧٧].

لقد جاء الأمر بفعل الخير بعد الأمر بالركوع والسجود والعبادة؛ ليُقرِّر أن طريق الفلاح لا يكتمل بأداء العبادات الخاصة وحدها، بل يمتدُّ إلى كل عمل صالح ينتفع به الناس، وقد تنبَّه أئمةُ التفسير إلى هذا العموم، فقال الإمام الطبري: (واعْمَلُوا في دنياكم بما يرضاه الله منكم، ونَدَبَكُم إليه من العمل بطاعته، واجتنابِ معاصيه، وصلة الأرحام، وحُسن المعاملة، ومكارم

الأخلاق) [جامع البيان].

وقال الإمام القرطبي: (قوله تعالى: ﴿وَٱفۡعَلُواْ ٱلۡخَيۡرَ﴾ أمرٌ مُطلَقٌ يتناول كل خير من فروض ونوافل، وقال ابن عباس: هو صلة الرحم ومكارم الأخلاق) [الجامع لأحكام القرآن].

ومن ثم فإن صلاة المسلم وعبادته ينبغي أن تُثمِر في سلوكه رحمةً بالضعيف، وعونًا للمحتاج، وحرصًا على مصالح الناس؛ فليس من كمال التدين أن يكون المرءُ كثيرَ التعبد، ثم لا يُحرِّك ساكنًا أمام آلام مجتمعِه، أو يرى أخاه في شدة فيَصرِف عنه وجهه، أو يشاهد صاحب حاجة فلا يَعنِيه أمرُه.

ويؤكد القرآن هذا المعنى في قوله تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلۡبِرِّ وَٱلتَّقۡوَىٰۖ وَلَا تَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡعُدۡوَٰنِۚ﴾ [المائدة: ٢].

يقول الإمام الطبري: (وليُعِن بعضُكم أيها المؤمنون بعضًا على البِر، وهو العمل بما أمر الله بالعمل به، والتقوى هي اتِّقاء ما أمر الله باتقائه واجتنابه من معاصيه) [جامع البيان].

ويستخرج العلامة ابن عاشور من الآية قاعدةً اجتماعية بالغة الأهمية، فيقول: (وفائدة التعاون تيسير العمل، وتوفير المصالح، وإظهار الاتحاد والتناصر، حتى يصبح ذلك خُلُقًا للأمة) [التحرير والتنوير]. فليس المقصود أن يقوم كلُّ إنسان بعمل الخير منفردًا، وإنما أن يتحول التعاونُ إلى ثقافة عامة،

تتساند فيها الجهود الفردية والمؤسَّسية، ويصبح الإحسانُ سمةً للمجتمع كله، لا مَكرُمةً عارضة تَصدُر عن بعض أفراده.

وهذا هو المعنى الذي جمعه رسول الله ﷺ في قوله: «كُلُّ مَعْرُوفٍ صَدَقَةٌ» [متفق عليه]، فجعل المعروف كله صدقة، ولم يُقيِّده بمال أو جنس مخصوص من الإحسان؛ ليظل بابُ الخير مفتوحًا أمام الغني والفقير، والقوي والضعيف، وصاحب الجاه وصاحب الحِرْفة، وكلِّ مَن يستطيع أن يُقدِّم شيئًا ينفع به غيره.

ومن هنا فإن **فقه صنائع المعروف** هو فقه تحويل الإيمان إلى سلوك، والعبادة إلى أثر اجتماعي، والأُخُوَّة إلى مسئولية عملية.

أبواب المعروف أوسع من المال.. فلا يَحقِرَنَّ أحدٌ ما يستطيع تقديمه

من الأخطاء التي ينبغي تصحيحها أن يظن بعضُ الناس أن صنائع المعروف مقصورةً على التصدق بالمال، وأن مَن لا يملك مالًا لا يستطيع أن يكون صاحب معروف، وهذا فهم ضيق لا يتفق مع شمول الشريعة؛ فإن المعروف قد يكون بالمال، وقد يكون بالبدن، أو العلم، أو الجاه، أو الرأي، أو الوقت، أو الكلمة الطيبة، أو الدلالة على الخير، أو دفع الضرر عن الناس.

وقد رسم القرآن الكريم صورة متكاملة للبِر في قوله تعالى: ﴿لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ

وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِي ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُواْ ۖ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِي ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ ۗ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٧٧].

تجمع الآية بين صحة الاعتقاد، وإقامة الشعائر، وبذل المال، والوفاء بالعهد، والصبر عند الشدائد؛ وكأنها تُقرِّر أن البر ليس خُلُقًا واحدًا، ولا عملًا منفردًا، وإنما منظومةٌ متكاملة تتسانَد فيها حقوق الله وحقوق العباد، ويقول الإمام الطبري في تفسير قوله تعالى: ﴿وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ﴾: (وأعطى ماله في حين محبَّته إياه، وضَنِّه به، وشُحِّه عليه) [جامع البيان]، ففي ذلك تنبيه إلى أن قيمة البذل لا تُقاس بمقدار ما يُخرِجه الإنسان فحسب، بل بما يجاهد به نفسَه من حب المال والحرص عليه.

وإذا كان المال أحد أبواب المعروف، فإن رسول الله ﷺ فتح للمؤمن أبوابًا لا تُحصَى من الخير، فقال لأبي ذر رضي الله عنه: «لَا تَحْقِرَنَّ مِنَ الْمَعْرُوفِ شَيْئًا، وَلَوْ أَنْ تَلْقَى أَخَاكَ بِوَجْهٍ طَلْقٍ» [رواه مسلم].

يقول الإمام النووي في شرح الحديث: (فيه الحثُّ على فضل المعروف، وما تيسَّر منه وإن قَلَّ، حتى طلاقة الوجه عند اللقاء) [شرح صحيح مسلم]، فالبشاشةُ معروف، والكلمة الطيبة معروف، وإرشاد الحائر معروف، ومساعدة العاجز معروف، ورفع الأذى عن الطريق معروف، والسعي في حاجة المحتاج

معروف.

وعلى هذا، فإن مَن لا يستطيع التبرع بالمال يستطيع أن يُقدِّم عِلمَه وخبرته، ومَن لا يملك جاهًا يستطيع أن يبذل وقته وجهده، ومن لا يقدر على مباشرة عمل بدني يستطيع أن يدل على صاحبه، أو ينشر مبادرة نافعة، أو يُواسِي مُصابًا، أو يصل إلى أسرة منكوبة، أو يُخفِّف عن إنسان أثقلَته الهموم.

وقد أحسن من قال من الشعر العربي:

النّاسُ لِلنّاسِ مِن بَدوٍ وَحاضِرَةٍ * بَعضٌ لِبَعضٍ وَإِن لَم يَشعُروا خَدَمُ

فالحياة الإنسانية قائمة على تبادُل المنافع وتكامُل الوظائف، وليس في ذلك انتقاص من أحد؛ إذ قد يحتاج صاحب المال إلى رأي الفقير، وقد يحتاج صاحب الجاه إلى خبرة العامل، وقد يكون إنقاذ إنسان في لحظة حرجة متوقفًا على مبادرة شاب لا يملك سوى قوة بدنه وشجاعته.

الله في عون العبد.. مَن فرَّج عن الناس فرَّج الله عنه

يُرسِي الإسلام قاعدة إيمانية عظيمة، تجعل الإحسان إلى الخَلْق طريقًا إلى إحسان الله إلى العبد، وتربط بين تفريج كُرُبات الناس وتَنزُّل المعونة الإلهية؛ فالمُحسِن لا يخسر ما بذله، وإن لم يشكره الناس، ولا يَضِيع سعيُه، وإن لم يلتفت إليه أحد؛ لأنه يتعامل مع الله، ويؤمن أن ما يُقدِّمه من خير مُدَّخَر عند مَن لا يضيع عنده عملُ عاملٍ.

قال تعالى: ﴿هَلۡ جَزَآءُ ٱلۡإِحۡسَٰنِ إِلَّا ٱلۡإِحۡسَٰنُ﴾ [الرحمن: ٦٠]، وقال سبحانه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحۡسِنُونَ﴾ [النحل: ١٢٨].

وفي تفسير الآية الأولى يقول الحافظ ابن كثير: (ما لمن أحسن العمل في الدنيا إلا الإحسان إليه في الآخرة)، ثم يُقرِّر أن في الآية دلالة على أن مَن أحسن إلى عباد الله أحسن الله إليه [تفسير القرآن العظيم]، وفي تفسير الآية الثانية يقول الإمام البغوي: (والذين هم مُحسِنون في أفعالهم وإحسانهم إلى الخَلْق، ومعيةُ الله لهم بالنصرة والمعونة والحفظ والكلاءة) [معالم التنزيل].

ويبين الشيخ محمد سيد طنطاوي أن الاستفهام في قوله تعالى: ﴿هَلۡ جَزَآءُ ٱلۡإِحۡسَٰنِ إِلَّا ٱلۡإِحۡسَٰنُ﴾ استفهامٌ تقريري يفيد النفي؛ أي ما جزاء مَن أحسن في عبادته لربه ومعاملته لخلقه إلا أن يقابله الله بإحسان أعظم منه فضلًا ومثوبةً، وفي ذلك حثٌّ للمؤمنين على البذل والعطاء، وثقةً بأن ما يقدمونه من خير مُدَّخَر لهم عند الله [التفسير الوسيط].

وتتجلَّى هذه القاعدة بأوضح بيان في الحديث العظيم الذي رواه مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: «مَنْ نَفَّسَ عَنْ مُؤْمِنٍ كُرْبَةً مِنْ كُرَبِ الدُّنْيَا نَفَّسَ اللهُ عَنْهُ كُرْبَةً مِنْ كُرَبِ يَوْمِ القِيَامَةِ، وَمَنْ يَسَّرَ عَلَى مُعْسِرٍ يَسَّرَ اللهُ عَلَيْهِ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ، وَمَنْ سَتَرَ مُسْلِمًا سَتَرَهُ اللهُ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ، وَاللهُ فِي عَوْنِ العَبْدِ مَا كَانَ العَبْدُ فِي عَوْنِ أَخِيهِ» [رواه مسلم].

إنه حديث يُؤسِّس لعلاقة أخلاقية وإيمانية بين الإنسان وأخيه؛ فمن يُخفِّف عن غيره يجد من الله تخفيفًا، ومن يُيسِّر على الناس يجد التيسير، ومن يستر عيوبهم يستره الله، ومن يجعل نفسَه في خدمة المحتاجين يتولَّ الله عونه وتوفيقه.

يقول الإمام النووي في شرحه: (فيه فضلُ قضاء حوائج المسلمين ونفعِهم بما تيسَّر من علم، أو مال، أو معاونة، أو إشارة بمصلحة، أو نصيحة، أو غير ذلك، وقوله: والله في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه، حديث عظيم جامع لأنواع من العلوم والقواعد والآداب) [شرح صحيح مسلم].

ويغوص الحافظ ابن رجب الحنبلي في دلالات ألفاظ الحديث، فيُوضِّح أن التنفيس هو تخفيف الكربة، وأن التفريج أعظم منه؛ إذ تذهب به الشِّدة وينكشف الهم، ثم يقول في بيان قوله ﷺ: (والله في عون العبد، يقتضي أن الله يعينه في أموره كلها كما أعان أخاه) [جامع العلوم والحكم].

ولا يقف الأمر عند وعد الثواب الأخروي، بل يُبشِّر الحديثُ بمعيةِ الله وعونه في شئون الحياة؛ وهي معية النصرة والتوفيق والحفظ والتيسير، ومن هنا نفهم أن الإنسان حين ينهض لمساعدة غيره لا يكون مجرد مُعطٍ يمد يده إلى محتاج، بل يكون في الحقيقة ساعيًا إلى باب من أبواب عون الله له.

وفي حديث آخر يُقرِّر النبي ﷺ هذه الأخوةَ العملية بقوله: «**الْمُسْلِمُ أَخُو الْمُسْلِمِ، لَا يَظْلِمُهُ وَلَا يُسْلِمُهُ، وَمَنْ كَانَ فِي حَاجَةِ أَخِيهِ كَانَ اللهُ فِي حَاجَتِهِ**»

[متفق عليه].

وقد فسَّر الحافظ ابن حجر قوله: «ولا يسلمه» بأنه (لا يتركه مع من يؤذيه ولا فيما يؤذيه، بل ينصره ويدفع عنه) [فتح الباري]، وهذا أبلَغُ من مجرد الامتناع عن إيذاء الآخرين؛ لأن الأخوة تقتضي ألَّا يترك الإنسان أخاه فريسةً للخطر، ولا يقف موقف المتفرج حين يستطيع دفع الأذى عنه.

ولأجل إدراك السلف الصالح شرف هذه المنزلة، كانوا يُقدِّمون نفع الخَلْق وقضاء حوائجهم على كثير من نوافل العبادات الفردية؛ فقد رُوي عن الحسن البصري رحمه الله قوله: (لأن أقضي لأخٍ لي حاجة أحبُّ إليَّ من أن أعتكف شهرين) [قضاء الحوائج لابن أبي الدنيا]، ولم يكن هذا انتقاصًا من شأن الاعتكاف، وإنما بيان لفضل العمل المتعدي الذي تتجاوز ثمرته صاحبه إلى غيره.

وقد صدق الشاعرُ الحُطَيئةُ حين قال:

مَن يَفعَلِ الخَيرَ لا يَعدَمْ جَوازِيَهُ * لا يَذهَبُ العُرفُ بَينَ اللَهِ وَالنّاسِ

فالمعروف لا يضيع، وإن جَهِلَ صاحبُه عاقبتَه، ولا ينقطع أجره، وإن انقطع ذِكرُه بين الناس.

التكافل وقت الأزمات.. حادث قطار العياط نموذجًا حيًّا

تظهر حقيقة المجتمعات في ساعات المِحَن أكثر مما تظهر في أيام الرخاء؛ فحين تقع الكوارث، وتتوالى الصيحات، وتختلط مشاعر الخوف بالرجاء، لا

يعود السؤال عن وفرة الشعارات التي يرفعها الناس، وإنما عن مقدار ما تحمله نفوسهم من الرحمة والاستعداد للبذل، هناك يتبيَّن الفَرق بين مجتمع يعرف معنى الأخوة، ومجتمع لا يتجاوز شعاراتها، وبين إنسان يشعر بألم غيره، وآخر يرى المصيبة أمامه فلا يُحرِّك ساكنًا.

وقد تجلَّى هذا الخُلُق الإسلامي في حادث قطار العياط الذي وقع يوم الأحد ٨ نوفمبر ٢٠٢٦، حين سارع أهالي المنطقة والقرى المجاورة إلى مساندة أعمال الإنقاذ، ولم تكن إمكاناتهم كبيرة، لكنهم قدَّموا ما يستطيعون؛ فأضاءوا موقع الحادث بالكشافات ومواتير الديزل الخاصة بهم لمساعدة رجال الحماية المدنية في استخراج المصابين والعالقين، وبادر بعضهم إلى فتح منازلهم لاستقبال المتضررين، وعرضوا تقديم الطعام والمياه والمأوى لمن احتاج إلى ذلك.

إن المشهد هنا جدير بأن يُقرأ قراءةً تتجاوز حدود الخبر العابر؛ فهؤلاء لم ينتظروا دعوة رسمية كي يتحركوا نحو إخوانهم، ولم يسألوا عن أسماء المصابين أو انتماءاتهم أو أحوالهم قبل أن يُقدِّموا لهم العون، بل تحركت فيهم الفطرة السليمة، واستيقظت في نفوسهم معاني الرحمة والمروءة، فكان لكل واحد منهم نصيبٌ من النجدة بحسب استطاعته.

وإن إضاءة طريق رجال الإنقاذ، أو فتح بيت للمصابين، أو تقديم جَرْعة ماء لمن أنهكه الخوف، أو إرشاد سيارة إسعاف إلى موضع محتاج، قد يبدو في

ميزان الأعمال أمرًا يسيرًا، لكنه في ساعة الكارثة يصبح عملًا عظيم الأثر؛ لأن قيمة المعروف تتضاعف بقدر الحاجة إليه، ويَعظُم أجرُه حين يتصل بحفظ النفس ودفع الهلاك.

وهذا الموقف ترجمة عملية لقوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحْيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعًا﴾ [المائدة: ٣٢].

يقول الإمام الفخر الرازي في بيان معنى الإحياء: (في تفسير الإحياء وجوه؛ الأول: أن المراد من الإحياء الإنقاذ من المهلكات، وهو قول مجاهد؛ يعني: مَن خلَّص إنسانًا من حرق، أو غرق، أو هدم، أو سَبُع، أو غيره من المهلكات، فكأنما أحيَا الناس جميعًا، والغرض منه تعظيم شأن الإحياء، والترغيب العظيم في تخليص النفوس المؤمنة والمعصومة عن الهلاك) [مفاتيح الغيب].

ويقرر ابن عاشور أن التشبيه في قوله تعالى: ﴿فَكَأَنَّمَآ أَحْيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعًا﴾ جاء لتقرير عِظَم حُرمة النفس الإنسانية، وأن مَن أنقذ نفسًا واحدة من الهلاك فقد أسهم في صيانة حُرمة النوع الإنساني كله [التحرير والتنوير]، ويؤكد أبو زهرة أن الإيثار عند شدة الحاجة هو الذروة العليا للتكافل؛ إذ يتجاوز الإنسانُ حدودَ مصلحته الفردية ليُقدِّم نجدة أخيه على راحته، ويشارك في حماية المجتمع من التفكُّك ساعة الفواجع. [زهرة التفاسير].

وهذا التلاحم هو الصورة العملية لقول رسول الله ﷺ: «مَثَلُ الْمُؤْمِنِينَ فِي

تَوَادِّهِمْ، وَتَرَاحُمِهِمْ، وَتَعَاطُفِهِمْ مَثَلُ الجَسَدِ إِذَا اشْتَكَى مِنْهُ عُضْوٌ تَدَاعَى لَهُ سَائِرُ الجَسَدِ بِالسَّهَرِ وَالحُمَّى» [متفق عليه].

ينقل الحافظ ابن حجر العسقلاني عن القاضي عياض في بيان الفروق بين هذه المعاني: (التوادُّ: التواصل الجالِب للمحبة كالتزاوُر والتهادي، والتراحُم: أن يرحم بعضُهم بعضًا بأخوة الإيمان، والتعاطف: إعانةُ بعضِهم بعضًا كما يعطف الثوب عليه ليقويه) [فتح الباري].

غير أن **فقه النجدة** لا يعني الاندفاع الذي قد يضاعف الخطر؛ فالمعروف في مثل هذه الظروف يقتضي التعاون مع فِرَق الإسعاف والحماية المدنية، وعدم مزاحمة المختصين، وعدم الإقدام على إجراءات لا يُحسِنها المتطوع، وصَوْن المصابين من التصوير والتشهير، فالمقصود إنقاذ النفس وتخفيف الضرر، لا مجرد إظهار الحماسة، ومن تمام المعروف أن يكون نافعًا، منظَّمًا، قائمًا على الحكمة ومعرفة حدود الاستطاعة.

صيانة كرامة المحتاج.. المعروف إحسان لا إذلال

ليس كلُّ مَن بذل مالًا محسنًا، ولا كل مَن قدَّم مساعدة محقِّقًا لمقصدها الشرعي؛ فقد يُنفِق الإنسانُ مالًا كثيرًا ثم يَفسُد أثره بالمنِّ والأذى، وقد يمد يده بالعطاء ثم يجرح بها كرامة المحتاج، وقد يجعل من إحسانه وسيلة للاستعلاء على الآخرين، وإشعارِهم بالضعف والذل.

ولذلك لم يكتفِ الإسلام بالأمر بالإنفاق، بل أحاطه بسياج من الآداب التي

تحفظ للإنسان كرامته، وتصون مشاعره، وتمنع تحوُّل الصدقة إلى أداة للإهانة.

قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ لَا يُتۡبِعُونَ مَآ أَنفَقُواْ مَنّٗا وَلَآ أَذٗى لَّهُمۡ أَجۡرُهُمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ وَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ﴾ [البقرة: ٢٦٢]، وقال سبحانه: ﴿قَوۡلٞ مَّعۡرُوفٞ وَمَغۡفِرَةٌ خَيۡرٞ مِّن صَدَقَةٖ يَتۡبَعُهَآ أَذٗىۗ وَٱللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٞ﴾ [البقرة: ٢٦٣].

يقول الإمام القرطبي في تفسير الآية الأولى: (المن والأذى مُبطِلانِ لثواب الصدقة) [الجامع لأحكام القرآن]، وهذا يُبيِّن أن الشريعة لم تنظر إلى العطاء من جهة قيمته المادية وحدها، وإنما نظرت كذلك إلى آثاره النفسية والاجتماعية، وما يصاحبه من خُلُق أو سوء أدب.

ومن هنا ينبغي أن يكون المعروف مَصُونًا من جرح المشاعر، فلا يُعَيَّر فقير بفقره، ولا يُذكَّر صاحب حاجة بما قُدِّم له، ولا تُتخذ مصائب الناس مجالًا للتصوير والانتشار طلبًا للتفاعل أو الشهرة، ولا تُعرَض صور المنكوبين وأحوالهم الخاصة بغير إذنهم، ولا يُشعَر المصاب بأنه عبء على المجتمع أو موضع شفقة مهينة.

وقد يكون أشد ما يحتاج إليه صاحب الحاجة أن تَمُدَّ إليه يدك دون أن يشعر أنك تَمُنُّ عليه، وأن تحفظ سِرَّه، وتَصُون خصوصيته، وتعطيه ما يحتاج إليه في

صورة تحفظ ماء وجهه، وتُبقِي له إحساسه بعزته وكرامته.

وهذا المعنى يتصل بقول النبي ﷺ: «المُسْلِمُ أَخُو المُسْلِمِ، لَا يَظْلِمُهُ وَلَا يُسْلِمُهُ» [متفق عليه]، فالأخوة لا تسمح للإنسان أن يستغل حاجة أخيه، أو يضاعف آلامه، أو يتركه نهبًا للحرج والإذلال، بل تُوجِب عليه أن ينصره ويدفع عنه ما استطاع.

المعروف مسئولية مشتركة

من المفاهيم المهمة التي ينبغي ترسيخها أن التكافل ليس مهمة فئة بعينها، ولا واجب الأغنياء وحدهم، ولا مسئولية المؤسسات الخيرية دون سائر المجتمع؛ بل هو واجب تتكامل فيه أدوار الفرد والأسرة والمؤسسة والدولة، ويؤدي كل طرف ما يستطيع بحسب موقعه وإمكاناته.

قال تعالى: ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة: ٧١].

يقول الحافظ ابن كثير: (بعضهم أولياء بعض، أي: يتناصرون ويتعاضدون) [تفسير القرآن العظيم]، فهذه الولاية ليست مجرد علاقة وجدانية، وإنما هي رابطة تُترجَم إلى نصرة ومعاونة وتحمُّل للمسئولية.

وفي الحديث الصحيح عن أبي هريرة رضي الله عنه، أن النبي ﷺ قال:

«السَّاعِي عَلَى الأَرْمَلَةِ وَالمِسْكِينِ كَالمُجَاهِدِ فِي سَبِيلِ اللهِ، أَوِ القَائِمِ اللَّيْلَ الصَّائِمِ النَّهَارَ» [متفق عليه].

يقول الإمام النووي في شرحه: (المراد بالساعي الكاسب لهما: العامل لمئونتهما) [شرح النووي على صحيح مسلم]، فالحديث لم يقصر الفضل على مَن يُقدِّم المال مباشرةً، وإنما جعل للساعي في قضاء الحاجات منزلة عظيمة؛ لأنه يقوم بعمل يتصل بمصالح الناس، ويستمر أثره في حياتهم.

ومن هذا المنطلق لا بد من العمل على تهيئة المجتمع قبل الأزمات، وتدريبه على النجدة، وربط المبادرات الأهلية بالمؤسسات المختصة.

ومن صور ذلك: إنشاء فِرَق تطوعية مدرَّبة على المساندة الأولية والإغاثة، والتعامل الآمِن مع الكوارث، بالتعاون مع الجهات المختصة.

دعم بنوك الدم والمبادرات الطبية، والتوعية بالتبرع المنظَّم والآمِن، وتوفير قنوات موثوقة للمساعدة.

إنشاء قواعد بيانات للمساعدات الإنسانية، وتيسير الوصول إلى الأسر المحتاجة، مع صيانة خصوصياتها.

تشجيع أصحاب المهن والخبرات على تقديم جزء من وقتهم لخدمة المجتمع، كالطبيب والمهندس والمعلم والمحامي والفني.

رعاية أُسَر المتوفين والمصابين بعد انتهاء الحدث الإعلامي، ومتابعة احتياجاتهم المعيشية والتعليمية والنفسية.

تكوين ثقافة مجتمعية لا تكتفي بإغاثة المنكوب ساعة الحادث، وإنما تساعده على تجاوز آثاره، واستعادة قدرته على مواصلة الحياة.

أثر صنائع المعروف في المجتمع

لا تقف آثار صنائع المعروف عند حدود المنتفع بها، بل تمتد لتشمل المجتمع كله؛ فهي توثق روابطه، وتنشر الثقة بين أفراده، وتشيع بينهم روح التعاون والمسئولية، وتجعل كل فرد مطمئنًّا إلى أن له في جماعته سندًا يعينه حين تضيق به سبل الحياة.

أولًا: تقوية الروابط الاجتماعية وإشاعة الثقة بين الناس، فحين يجد الضعيف مَن يعينه، والمحتاج من يسد حاجته، والمصاب من يواسيه، يشعر أن المجتمع ليس أفرادًا متجاورين، بل أسرة متراحمة تتبادل الحقوق، وتتقاسم المسئوليات، وفي أثر المواساة في صلاح المجتمع يقول الماوردي: (فيَقِلُّ في الناس الحسد، وينتفي عنهم تباغُض العدم، وتتسع النفوس في التوسع، وتكثر المواساة والتواصل، وذلك من أقوى الدواعي لصلاح الدنيا وانتظام أحوالها) [أدب الدنيا والدين].

ثانيًا: تهذيب النفس ومقاومة الشح والأنانية، فصنائع المعروف تربية عملية للنفس على البذل والإيثار، وتحرير لها من أسْر الأنانية وحب الاستئثار؛ وقد وصف القرآن أهل الفلاح بقوله تعالى: ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ

﴿ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [الحشر: ٩]؛ فمقاومة الشح سبيل إلى تزكية النفس، وحملِها على تقديم الخير للآخرين.

ثالثًا: تحقيق الأمن النفسي والاجتماعي، فحين يَشِيع المعروف يشعر أفراد المجتمع بالأمان والطمأنينة؛ إذ يعلم كل إنسان أن حاجته لن تُهمَل، وأنه لن يُترك وحيدًا في أوقات ضعفه ومحنته، وهذا الشعور يُعزِّز الانتماء، ويَحُدُّ من مشاعر العزلة والحرمان، ويقوي الثقة المتبادلة، ويجعل المجتمع أكثر تماسكًا واستقرارًا.

رابعًا: تعزيز القدرة على مواجهة الأزمات، فالمجتمع الذي يتعوَّد أفرادُه على التعاون والتكافل في الأحوال العادية يكون أقدَرَ على التكاتف عند الشدائد.

خامسًا: دفع أسباب التفكك، والحد من الحقد والحسد، فحين يرى المحتاجُ مَن يواسيه، والغني من يشاركه، تتراجع دوافعُ الأَثَرة والاستغلال، وتحُلُّ محلها المودة والتراحم، وهكذا يصبح الإحسان عاملًا من عوامل الاستقرار، ووسيلة لحماية المجتمع من أسباب التنازع والتفكك.

سادسًا: نَيل رحمة الله وبركته، لا تقتصر ثمار المعروف على صلاح العلاقات الإنسانية، بل تمتد إلى ما يرجوه المؤمن من فضل الله ورحمته؛ فقد جعل سبحانه الإحسانَ سببًا لإحسانه، فقال: ﴿هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا

﴿ٱلْإِحْسَٰنُ﴾ [الرحمن: ٦٠].

غياب المعروف.. حين تتراجع الرحمة وتتفكك الروابط

على النقيض من ذلك، فإن غياب صنائع المعروف وتَفشِّي الأنانية والشح واللامبالاة من أخطر ما يُهدِّد تماسُك المجتمعات؛ إذ تتحول العلاقات الإنسانية من علاقات تعاون ومودة إلى علاقات مصلحة ومنافع ضيقة، ويصبح الإنسان منشغلًا بحماية مكاسبه، غير مكترث بما يعانيه غيره من آلام.

وقد قصَّ القرآن علينا خبر أصحاب الجنة الذين أقسموا أن يَصرِمُوا ثمار بستانهم في الصباح، وألا يتركوا للمساكين منه شيئًا، فقال تعالى: ﴿إِنَّا بَلَوْنَٰهُمْ كَمَا بَلَوْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا۟ لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ ۝ وَلَا يَسْتَثْنُونَ ۝ فَطَافَ عَلَيْهَا طَآئِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَآئِمُونَ ۝ فَأَصْبَحَتْ كَٱلصَّرِيمِ﴾ [القلم: ١٧-٢٠].

لقد كان فسادُ أصحاب الجنة في حرصهم على الاستئثار بالنعمة، وحرمان أهل الحاجة من حقهم في المعروف، فكان في قصتهم تحذيرٌ من البخل بالخير، ومن أن يتحوَّل المال إلى سبب للغرور واحتقار المحتاجين، يقول الطبري في بيان حالهم: (حلفوا ليَصرِمُنَّ ثمرَها إذا أصبحوا، فلا يَطعَم منها غيرُهم من المساكين ونحوهم) [جامع البيان].

وليس المقصود أن كل نقص في التكافل يستلزم وقوع العقوبة الدنيوية على صورة واحدة، وإنما المقصود أن الحرمان والبخل والإعراض عن حقوق

المحتاجين أسبابٌ للفساد، ومناقضةٌ لما أمر الله به من الإحسان والتعاون.

ويُحذِّر النبي ﷺ من نزع الرحمة من القلوب بقوله: «مَنْ لَا يَرْحَمُ لَا يُرْحَمُ» [متفق عليه]، ويُبيِّن الحافظ ابن حجر أن في الحديث (الحثَّ على استعمال الرحمة لجميع الخَلْق) [فتح الباري].

فإذا ماتت الرحمة في النفوس لم يعد الإنسان يرى في المحتاج أخًا يستحق المواساة، بل يراه عِبئًا، وربما رآه فرصة للاستغلال، وإذا شاهد مصابًا لم يتحرك فيه الشعور بالمسئولية، وإذا وقعت كارثةٌ لم يفكر إلا في سلامة مصلحته الخاصة.

وقد أحسن أبو العتاهية تصوير بقاء المعروف وعاقبة بَذْره حين قال:

ازرَع جَميلًا وَلَو في غَيرِ مَوضِعِهِ * فَلا يَضيعُ جَميلٌ أَينَما زُرِعا

إِنَّ الجَميلَ وَإِن طالَ الزَمانُ بِهِ * فَلَيسَ يَحصُدُهُ إِلّا الَّذي زَرَعا

فالمعروف حياة للقلوب قبل أن يكون عونًا للأبدان، وحماية للمجتمع قبل أن يكون مساعدة لفرد، ووقاية من القسوة والتفكك قبل أن يكون تبرعًا أو مبادرة عابرة.

إن **فقه صنائع المعروف** ليس بابًا من أبواب المواعظ التي تستحسنها الأسماعُ ثم تنساها الأيام، وإنما هو منهج حياة، وضرورة اجتماعية، وعبادة تتجدَّد في كل موقف يحتاج فيه إنسان إلى عون أخيه.

وليتذكر كلُّ إنسان قول النبي ﷺ: «وَاللهُ فِي عَوْنِ العَبْدِ مَا كَانَ العَبْدُ فِي عَوْنِ

أَخِيهِ»؛ فهي قاعدة جامعة، ووعد إلهي كريم، ودعوة مفتوحة لكل من أراد أن يكون في معية الله وعونه.

فطوبى لمن جعله الله مفتاحًا للخير، مِغْلاقًا للشر، وسعى في قضاء حوائج الناس، وكَشْفِ كُرباتهم، وأحيا في المجتمع معاني الرحمة والمروءة والتكافل؛ فإن المعروف وإن صغر في أعين أصحابه قد يَعظُم أثره في حياة الناس، ويبقى أجرُه عند الله.

.



مراجع للاستزادة:

- اصطناع المعروف، للحافظ ابن أبي الدنيا.
- الأخلاق الاجتماعية، التعاون، التعاون في بناء الإنسان القوي، مجموعة مقالات على منصة وزارة الأوقاف المصرية.